﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾

[الأحزاب: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ النَّهي عن إيذاء النَّبيِّ في أزواجه، بكون النّيّات المخفيَّة معلومة عند الله

لَمّا حذَّرهم في الآية السّابقة عن إحداث الأذى برسول الله ﷺ بنكاح أزواجه من بعده؛ ذكر هنا أنَّ الإنسان قد يضمر فعلًا مؤذيًا عند التَّمكُّن، وقد يؤذي بفعل يفعله، بادِّعاء أنَّه قصد شيئًا آخر لا يؤذي، فنبَّههم إلى التَّفطُّن والتَّنبُّه في الأقوال وغيرها، والمقاصد الحسنة ظاهرًا بأن يبدوه بألسنتهم وغيرها، وباطنًا بأن يخفوه في صدورِهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُواْ﴾: (بدو) أصلٌ واحد، وهو ظهور الشَّيء، يقال: بدا الشيءُ يبدو؛ إذا ظهر، فهو بادٍ، وسُمّيَ خلاف الحضر بدوًا من هذا؛ لأنَّهم في براز من الأرض، وليسوا في قرًى تسترهم أبنيتها، وبدو الشَّيء: ظهورُهُ ظهورًا بيِّنًا، وقيل للبريَّة: بادية؛ لأنَّها ظاهرة، والمعنى المحوريُّ للبُدوِّ أن يظهر الشَّيء، ويتكوَّن أوَّل مرَّة[2]، ومعنى ﴿تُبۡدُواْ﴾ في الآية: إذا أظهرتم شيئًا من أمر التَّزويج أو نحوه[3].

2) ﴿تُخۡفُوهُ﴾: (خفي) أصلان متباينان متضادان، فالأوَّل: الستر، والثاني: الإظهار، فمِن الأوَّل: الإخفاءُ، والخفية والخافية وهي نقيض العلانيَّة، وقولك: أخفيتُ الشَّيء بمعنى: سترته، وكلُّ شيء غطَّيته بستر فقد أخفيته، ويقال للرَّجل المستتر: إنَّه مستخفٍ، والخفاء ما كان مقابلًا للإعلان والإبداء، واستخفيتُ مِن فلان،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدو - بدا).
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 71.

أي: تواريتُ، واستترتُ[1]، ومعنى ﴿تُخْفُوهُ﴾ في الآية، أي: تسرّونه في صدوركم، ولا تظهرونه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يشير النَّصُّ الكريم إلى أنَّ الحقَّ ﷻ يحاسب الإنسان على كلِّ ما يفعله من الأذى ظاهرًا كان، أو في طيِّ الكتمان، فإنَّ الله تعالى يعلم كلَّ شيء على جهة التَّفصيل، ولا يخطِئُ في عِلمِه أبدًا، فيعلم ما تكنُّه القلوب، وما تنطوي عليه السَّرائر، و﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: 19]، فلا يخفى عليه شيء، ثمَّ يجازي كلَّ امرئٍ بحسب ذلك العلم.

لا تخفى على الله خافيةٌ؛ لأنَّ عِلمَهُ محيطٌ بكلِّ شيء

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ لأنَّه تذييلٌ لما اشتملت عليه من العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾، فهو كلام جامعٌ تحريضًا وتحذيرًا، ومنبئٌ عن وعد ووعيد، فإنَّ ما قبله قد حوى أمرًا ونهيًا، وإذا كان الامتثال متفاوتًا في الظاهر والباطن وبخاصَّة في النّيّات والمضمرات؛ كان المقام مناسبًا لتنبيههم وتذكيرِهم بأنَّ الله مطَّلع على كلِّ حال من أحوالهم في ذلك وعلى كلِّ شيء[3].

السّياقُ منبئٌ عن التَّحذير الشَّديد، ومظهر للوعد والوعيد

سرُّ تقييدِ الإيذاء بـ﴿إن﴾ دون (إذا):

لمّا كان الفعلُ منهم مذمومًا سواء أكان باديًا ظاهرًا منهم، أم كان خافيًا يكنّونه في قلوبهم؛ استعمل ﴿إن﴾ الشَّرطية الدّالَّة على النُّدرة والقلَّة والاحتمال[4] بقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛

إبداءُ فعلِ السّوء أو إضماره لا ينبغي من المؤمن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خفي).
(2) الخازن، معاني التنزيل: 3/ 434.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 2/ 520.

للإيذان بأنَّ مثل هذه الأفعال - وهي ممّا يتأذّى منها نبيُّ الله ﷺ - قليلةُ الحصول من المؤمن، أو ينبغي أن تكون كذلك، خلاف (إذا) الدّالَّة على حتميَّة حصول الفعل.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُبْدُواْ﴾:

إبداءُ نكاحِ أزواج الرَّسول مِن أقبح الفعل وأشنعه

الإبداءُ بمعنى الإظهار، فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾، أي: إن تظهروا شيئًا، لكنَّه وارد مورد الوعيد، فالمعنى: أنَّ الله يستوي علمه بأفعالكم كلِّها سواء ما أبديتموه منها، أو ما أخفيتموه، وهو مُجازٍ عن ذلك كلِّه.

واستعمل الفعل مضارعًا في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على استمرار علم الله تعالى وثبوته، فهو ﷻ مطَّلع على جميع أفعالِ عباده، قليلِها وكثيرِها، ظاهرِها وباطنِها.

سرُّ إسناد ﴿تُبْدُواْ﴾ إلى ضمير الجماعة:

اللهُ عليمٌ بخلقهِ فردًا فردًا

في إسناد الفعل إلى واو الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ دلالةٌ على أنَّ الحقَّ ﷻ مطَّلعٌ على أفعال خَلقِهِ جميعًا، فردًا فردًا، لا يغيب عنه أحدٌ منهم، ولا يخفى عليه عمل عاملٍ منهم، فهو الذي قال سبحانه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: 3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول به نكرة في ﴿شَيْـًٔا﴾:

علمُ اللهِ محيط بكلِّ ما يظهر على الحال، أو يخطر على البال

جاء بمفعول الإبداء بلفظ الشَّيء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الحقَّ ﷻ مطَّلع على كلِّ ما يخطر في بال العبادِ من جميع الأمور مهما دقَّت، ومهما عظُمت، لا يفوته شيء، ولا يخفى عليه أمر[1]، وهو محيط بكلِّ ما يظهره المرء بلسانه أو بفعله، فالعلمُ الإلهيُّ يشمل كلَّ شيء.

(1) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5865.

ونكَّر ﴿شَيۡـًٔا﴾؛ للدِّلالة على العموم، فلفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾ هنا عامٌّ في كلِّ ما كان باديًا، وكلِّ ما كان خافيًا؛ لِما تقرَّر عند العرب أنَّ النَّكرة في سياق الشَّرط تعمُّ[1].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾:

من معاني ﴿أَوۡ﴾ في لسان العرب الجمع المطلق كالواو[2]، ويردُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، والمعنى: "ما تظهرونَهُ في شأن أزواج رسوله، وما تكتمونه في صدوركم"[3]، فاللّه تعالى يعلمُ جميعَ ذلك، ويجازي به سبحانه.

ما يظهره البشرُ، أو يكتمونه، يعلمُهُ اللّه، فيجازيهم به

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُخۡفُوهُ﴾:

الإخفاء في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ يدلُّ على إضمار الشَّيء وستره، أي: "ما تكنُّه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، فاللّه يعلمه؛ إذ لا تخفى عليه خافية... ثمَّ يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية"[4].

بيانُ أنَّ اللّهَ عليمٌ بما تكنُّه الضَّمائر، وما تنطوي عليه السَّرائر

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿تُبۡدُواْ﴾ و﴿تُخۡفُوهُ﴾:

بين فعل الإبداء في قوله تعالى: ﴿تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾، وفعل الإخفاء في قوله تعالى: ﴿تُخۡفُوهُ﴾ مطابقةٌ بديعية لطيفة[5]، فقد قابل بين جملتين تشتمل كلٌّ منهما على فعل وفاعل ومفعول، مع التَّباين في المعنى، فالأولى تدلُّ على الإبداء والظُّهور، والثّانية على الإخفاء والسِّتر، وذلك ما يزيد المعنى بيانًا وظهورًا، ويكون أبلغَ في التَّهديد والتَّخويف.

مقابلةُ ما يدلُّ على الإبداء والظُّهور، بما يدلُّ على الإخفاء والسُّتور

سرُّ تقديم ﴿تُبۡدُواْ﴾ على ﴿تُخۡفُوهُ﴾:

قدَّم فعلَ الإبداء على فِعلِ الإخفاء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا

إبداءُ المعصيةِ والمجاهرة بها مِن شنيع الفعلِ عند الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 88.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 11/ 132.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 31.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 523.

﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الفعل أشنعُ وأقبح[1] عند الله تعالى من فعل الإخفاء؛ لأنَّ فيه مجاهرةً وإعلانًا بالمعصية، وإصرارًا عليها.

بلاغةُ حذف جواب شرط ﴿إِن تُبۡدُواْ﴾:

الحذفُ دالٌّ على بالغ التهديد والوعيد

في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ مجازٌ بالحذف، فإنَّ جواب الجملةِ الشَّرطية محذوفٌ، تقديرهُ يعلمه الله، فيكون قوله تعالى بعده: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ تعليلًا للجزاء المحذوف، أُقيمَ مقامه، والتَّقدير: يعلمه الله، فَإنَّ الله كانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ[2].

والحذف هنا لِتَجْمَعَ الآيةُ بين معنيين: عِلمِ الله الخاصِّ بالحادثة بعينها، وعِلمِهِ سبحانه المحيط بكلِّ شيء، فيكون في هذا الحذف بالغُ التَّهديدِ والوعيد.

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

كلُّ ما يصدر من المعاصي يجازي عنه اللهُ الآخذُ بالنّواصي

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ رابطة لجواب الشَّرط بفعله[3] على أنَّ الجملة جوابُ الشرط، لا أنَّها الدليل عليه، والتقدير: (إن تبدوا شيئًا، أو تخفوه، فأخبركم أنَّ الله كان بكل شيء عليمًا)[4]، وفيه معنى المجازاة، أي: مهما يكن ممّا يصدر منكم من المعاصي التي تبدونها على ألسنتكم، وتظهرونها في أفعالكم، والمعاصي الخافية التي تكنّونها في أنفسكم؛ فإنَّه يجازيكم بها لا محالة[5].

أمّا على كون الجملة دليلًا على جواب الشرط المحذوف، والذي تقديره: (إن تبدوا شيئًا أو تخفوه؛ يجازِكم به، فإن الله كان بكل شيء عليمًا)، فتكون الفاءُ هنا دالَّةً على معنى التَّعليل، فإنَّ الله تعالى يجازي على السِّرِّ والعلن؛ لأنَّه مطَّلع على كلِّ شيء.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 413.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 7/ 373.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 43.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 249.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.

الغرضُ من توكيد الخبر في السّياق:

التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾؛ للتَّخويف والتَّهديد بما كان في مضمون الجملة السابقة، فإنَّه سبحانه أكَّد علمَهُ بظواهر العباد وخفاياهم، ويلزم من ذلك جزاؤهم وحسابُهم، فلا يظنُّ ظانٌّ بعد هذا أنَّه إن أخفى شيئًا؛ فإنَّه قد يخفى على الله تعالى.

تنبيهٌ وترهيبٌ لمن ظَنَّ أنَّ فِعْلَهُ عن الله يغيب

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّعبيرُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ إيذانٌ وتذكير بأنَّ له صفات الكمال والجلال جميعها[1]، ويدلُّ على أنَّ عِلْمَهُ الكامل يحيط بكلِّ شيء، فيحذر العبد مخالفةَ أمر ربِّهِ في ظاهره وباطنه.

بيانٌ بأنَّ الله تعالى، له جميعُ صفات الكمال والجلال

دلالةُ الإخبار بالماضي ﴿كَانَ﴾:

الإخبارُ بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ تأكيدٌ على أزليَّة علم الله وأبديَّته[2]، فهو إخبارٌ بأنَّ عِلم الله ﷻ سبق كلَّ شيء، فهو العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه شيء.

العليمُ بكلِّ شيء في الأزل والأبد هو الله الواحد الأحد

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، دالَّة على الإلصاق والمصاحبة والدَّوام، وقيل: إنَّه الأصل في جميع معانيها، فعلمُهُ تعالى مصاحبٌ متَّصل ملتصق بكلِّ شيء مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، سرًّا أو جهرًا، فعلًا أو قولًا[3].

عِلمُهُ تعالى مصاحب لكلِّ شيء مهما صغر أو كبر

دلالةُ التَّعبير بلفظ العموم (كُلّ):

لفظةُ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، دالَّةٌ على التَّعميم، "وفي هذا التَّعميمِ مع البرهان على المقصود

إحاطةُ الله بكلِّ شيء علمًا، تهديدٌ من عقابه الصّارم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 24.

مزيدُ تهويلٍ وتشديد ومبالغة في الوعيد"[1]، فهو تحذيرٌ صريح لكلِّ العصاة، فاللّه تعالى مطَّلع على كلِّ ما يبطنونه، ويعلنونه.

دلالةُ إظهار لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ بعد ذكره من قبل:

قد يردُ سؤال عن تكرار لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، وقد ذكره في مستهلِّ الآية بقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾، فهلّا كان موضع الإضمار بعد الذِّكر؟ والجواب عن ذلك أنَّ الإضمار هنا لا يستقيم من جهة أنَّ الشَّيء المذكور ثانيًا هو غير المذكور أوَّلًا، فالمراد بالأوَّل خصوصُ أحوال النّاس ما كان ظاهرًا منها، وما كان باطنًا، أمّا المرادُ بالثّاني؛ فجميعُ ما أوجده اللّه تعالى، وخَلَقَهُ، فيدخل فيه الصِّنف الأوَّل، والحقُّ ﷻ عليمٌ بكلِّ كائنٍ، ومن جملته ما يبدونه، وما يضمرونه من أحوالهم المخصوصة[2].

علمُ اللّه محيطٌ بأحوال النّاس وأحوال الموجودات

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَلِيمًا﴾:

التَّعبيرُ بالعلم في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، معناه أنَّه لا يخفى عليه شيءٌ، يعلم إعلانكم وإسرارَكم مهما بالغتم في كتمانه[3]، فهو محيطٌ بكلِّ شيء، والمقصد من ذلك أن يكونوا على حذر وخوف دائمين إن أيقنوا أنَّه تعالى يعلم سرائرهم فضلًا عن ظواهرهم[4]، وأورد صفةَ العلم على صيغة (فَعيل) بقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾ الدّال على المبالغة في العلم، فعِلْمُهُ تعالى علم أزليٌّ أبديٌّ غير حادث ولا متجدِّد، وهو عليم في الأزمان كلِّها الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنَّه لا زمن عند الحقِّ ﷻ، وإنَّما الزَّمن ظرفٌ لبني الإنسان[5].

مَن أدركَ إحاطةَ عِلمِ اللّه بكلِّ شيء؛ كان على خوفٍ وحذرٍ دائمين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 408.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 12138.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»